دافنينه سوا

أتذكّر دائمًا القول: "رافق المِسْعَد تِسْعَد". وممّا لا شك فيه أنّ نفسيتنا تتأثر كثيرًا بالأشخاص الذين نجلس معهم والذين نتحدث إليهم. وكثيرًا ما وجدت نفسي أمتنع عن لقاء أو الجلوس مع أشخاصٍ دائمي التذمّر والشكوى كي لا تنتقل العدوى إليّ، وتتأثر نفسيتي وينقلب مزاجي إلى الأسوأ. كذلك الأمر في كتاباتي الأسبوعيّة، أحاول أن أكون متفائلًا كي لا أوصم بالسّلبية والنكد وكي لا أتحول إلى نذير شؤم في كتاباتي، وخاصة عندما أسمع بعض تعليقات الأصدقاء والقرّاء حيث قالت لي صديقة، تعليقًا منها على المدونة الأخيرة، قالت: "ياريت تكتبلنا عن شيء إيجابي يملؤنا حيوية وطاقة إيجابية ولو لمرة... تمرمرنا من سرد الواقع الأليم".

تألمت لكلماتها التي ما زالت ترن بآذاني كلّما أقدمت على كتابة سطر أو جملة حول الواقع الذي نعيشه. لا شكّ أنّ الكتابة حول المواضيع السّلبية هي أسهل وأكثر تشويقًا للقارئ، كما أنّها أكثر استفزازًا للكاتب، لذلك نحن نميل أكثر إلى قراءة الفضائح من قراءة الأخبار السّارّة. هل تعودنا أن تُثيرنا الفضائح؟ الجواب: نعم.

من هذا المنطلق قال لي صديق حميم، عندما ذكرت أمامه هذا الموضوع وأعربت عن مدى تردّدي في الكتابة، حيث اقترح عليّ أن أكتب عن مواضيع إيجابية واقترح عليّ أن اكتب عن موضوع "الصداقة" شارحًا لي بالتّفصيل عمّا سأكتب وكيف سأقوم بصياغة الموضوع وتحريره. استمعت إلى صديقي "خلدون" متظاهرًا بالاهتمام والإصغاء، بينما تتسارع الأفكار في ذهني وتتلاحم. متسائِلًا بيني وبين نفسي عمّا سأكتب في موضوع الصداقة وكيف سيكون رد فعل القرّاء حول هذا الموضوع. خططت كثيرًا وحاولت أن أرسم في مخيّلتي بعض الأفكار حتى لا أُكرر ما كُتب سابقًا حول هذا الموضوع. فكّرت كيف سأبقى متفائِلًا وفي نفس الوقت مُثيرًا ومشوّقًا.

بما انني أحب اللغة العربية وأعشقها وأعود إليها دائمًا في كتابتي وتفكيري، فقد أخذت بالتفكير حول قضية تعدد أنواع الصديق في اللغة العربية، فهناك عدد من المستويات ومسمّيات الصداقة. وهذه المستويات تصل إلى 13 مستوى. هنا لا بد من السؤال: لماذا احتاجت اللغة العربية إلى كل هذا التفصيل؟

صحيح أنّ اللغة العربية هي لغة واسعة مفصّلة ودقيقة في مفرداتها وتعابيرها، حيث نجد 300 اسم للسّيف، وهناك مقولة مفادها بأن الإبل وحدها تحمل 1000 اسم في اللغة العربية.

إذا عدنا للصديق فباعتقادي أنّ تعدد المستويات والتسميات يدل على عدم المساواة في معنى الصّديق. باعتقادي أيضًا أنّ الصّديق اليوم هو عملة نادرة ولكي نكسب صديقًا، اليوم بواقعنا هذا، فإننا نحتاج إلى نفسيّة معيّنة متوافقة من الطرفين.

هل تشعرون مثلي أنه كلّما تقدّم بنا السن وكلما كبرنا فإنّ أصدقاءنا يقلّون أو حتى يتلاشوا؟ لقد كنت بالماضي أفتخر بعدد "الأصدقاء" الكبير الذي لدي، هذا العدد قد يصل أحيانًا إلى العشرات وعند بعض الناس إلى المئات.

أنا طبعًا لا أعتبر أصدقاء الفيسبوك ولا اضمهم إلى هذا الإطار.

كثيرًا ما يلومني أفراد عائلتي أنني أقبع كثيرًا في البيت، وأنه لا أصدقاء يزورونني أو أزورهم.

والسؤال هو أين ذهب هؤلاء الأصدقاء؟

خلال أحد النقاشات التي دارت بيننا قررنا تجديد صداقاتنا القديمة وبعث الحياة بها من جديد. جلسنا وحددنا الاستراتيجيات والخطوات التي يجب أن نسلكها. وجدنا أنّ أفضل طريقة هي أن نقوم بدعوة بعض الأصدقاء إلى وجبة العشاء والسّهر سويّة. حاولنا جاهدين حتى وجدنا أنّ التنسيق الأمني بين إسرائيل والسّلطة الفلسطينيّة أسهل بكثير من التّنسيق للخروج إلى مطعم مع أصدقائنا. وعندما نجح الأمر وخرجنا، رأينا أنه لم يكن هناك استمرارية وتبادلية من أصدقائنا "القدامى". يعني لبّوا دعوتنا وأكلنا وسهرنا وكما يقول المثل: "هذا وجه الضيف".

لم نيأس وأعدنا الكرّة من جديد، حاولنا اغراءهم من خلال السفر سويّة في رحلة خارج البلاد، وليتنا لم نفعل اذ قضينا الرّحلة محاولين إصلاح ذات البين بين الرجل وزوجته وعقد هدنة مؤقتة حتى عودتنا إلى البلاد.

أعتذر، ها أنا أجد نفسي أعود وأتذمّر وأشكو الواقع المرير. آسف أنني انجرفت وراء عواطفي.

دعوني أقول لكم أنّ الصّديق، في بعض الأحيان، أقرب إليك من أخيك. فعندما نختلف مع أي كان نهرع للصّديق، نفضفض له ما تكنّه صدورنا، نبثّ له أحزاننا، علّه يخفف عنّا وطأة الثقيل. لا علاج للضغط والغضب أفضل من أن تفضفض عنه لتستريح.

لكن هل هناك أمور يجب أن نتجنبها في علاقتنا مع الأصدقاء حتى تستمر صداقتنا إلى أطول وقت ممكن؟

باعتقادي هناك عدة أمور علينا أن نتجنبها حتى نحافظ على صداقاتنا، أول هذه الأمور هي المحافظة على الصّديق قريبًا بعيدًا. بمعنى أنّ القرب الشديد يولّد الاحتكاك والمشاكل. لا تسافر مع صديقك في رحلة إلى خارج البلاد خاصّة إذا كان متزوجًا. ابتعد عن السفر والتواجد معه. فإنّ السفر مشقّة ومصاريف، وهنا تظهر الشخصيّة الحقيقيّة للصّديق أو الصّديقة خاصّة في وجود شخص آخر معكم وهو الزوج أو الزوجة، حيث ستظهر في تصرفاته جوانب لا ترغب في معرفتها. أنا دائمًا مع المثل القائم "إبعد تِحلى".

الأمر الثاني هو الصّراحة التّامة، حيث تعتقد أنّها أفضل شيء في الحياة، تصطدم بموقف من تُصارحه من الأصدقاء، فإذا ذكرت له عيبه كأنّك لطمته على وجهه، فيتلوّن وجهه، وقد يُقصيك من قائمة أصدقائه. لأنك لم تعد مرغوبًا لديه.

وعلى حين غِرّة تتغير الأحوال وتصبح في نظره إنسانًا متصلبًا لا تفقه من الحياة شيئًا ولا تعرف أصول التعامل مع الناس وأنّك أصبحت فظًّا غليظ القلب.

أمّا الأمر الثالث فهو هل بمقدورك منح بعض المال لصديقك؟ بالطبع يمكنك ذلك لكن إذا ما أردت الحفاظ على العلاقة بينكما، اقترح عليك ألّا تقرض المال لصديقك إلّا إذا كنت مُستعدًا في داخلك ومتقبّلًا لحقيقة أنّ هذا المال قد لا يُرد لك أبدًا، وهكذا إذا لم يُرد لك المال – وأؤكد أنّ هذا هو ما يحدث غالبًا- لا تشعر بأي سوء تجاه الأمر. أمّا إذا توقعت ممّن أخذ المال أن يردّه لكنه لم يفعل، تخيّل مدى الجرح والخذلان اللذين ستشعر بهما من جرّاء هذا الموقف. إذا اقرضته بعض المال ولم تسترده، اعلم أنّك بهذا تخسر ما هو أكثر من مجرد المال – حيث تفقد الصداقة كذلك، وسوف يشعر صديقك بالجرح ويتهرب منك، والنتيجة هي خسارة الاثنين.

دعوني أرطّب الجو وندعو لدوام الصّداقة والإخاء بين الناس ولننه حديثنا بطرفة:

اتفق أنّ صديقين فقيرين أن أرادا أن يقوما بفريضة الحج. فتشاركا بشراء حمار كانا يتناوبان الركوب عليه ذهابًا وإيابًا. وحدث في طريق العودة أن مات الحمار وكانا قد أطلقا عليه اسم "زنكي"- فحفرا حفرة بجانب الطريق ودفناه فيها. وما أن فرغا من دفنه حتى مرّ بهما جماعة من الحجاج وسألوا عمّن يدفناه فقالا: "إننا ندفن الشيخ زنكي هنا، وهو رجل بار تقيّ نقيّ صاحب كرامات، وعندما وصل على هذا المكان شعر بدنو أجله، فطلب منّا، ونحن من اتباعه، أن ندفنه هنا وأن نبني ضريحًا ومزارًا في هذا المكان.

فما كان من الحجاج إلّا أن تبرعوا بما جاءت به نفوسهم، وتكرر قدوم الحجاج وتكررت التبرعات، فبنى بها الصّديقان مقامًا على اسم الشيخ زنكي وأخذ الناس يتوافدون على زيارته وتقديم النذور إليه، فجمع الرجلان ثروة طائلة وعاشا وقتًا طويلًا بأحسن حال.

ثم استأذن أحدهما رفيقه وذهب ليتفقد عائلته، وعندما رجع طلب حسابًا عن التبرّعات التي جاءت في غيابه، وعندما اطّلع عليها أعلن شكّه بأمانة رفيق، فما كان من هذا الّا أن قال: "أقسم لك بالشيخ زنكي أنّ هذا كل ما قبضته في غيابك".

فصاح به الرّجل الآخر: "ويحك! أتقسم بالشّيخ زنكي وهو حمار ابن حمار وقد دفناه سوا".

دمتم بكل الخير

أ.أيمن جبارة